الفصل الرابع

ظواهر العالمية فى الإسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

فى الإسم

خلق الله الناس جميعاً من أصل واحد ، فهم متساوون فى مصدر الخلق ، وفى العناصر التى تتكون منها أجسامهم ، يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء : ١]

لذا اشترك الناسّ فى الخصائص الإنسانية العامة، وفى الصفات الأصلية ، التى يقوم عليها مفهوم الإنسانية .

غير أن حكمة الله اقتضت أن يكون لاختلاف التضاريس ، وتباين المناطق الجغرافية أثره على ملامح المجموعات البشرية ، فتمايزت كل مجموعة عن الأخرى : فى الجسم والشكل واللون ، واختلفت مشارب كل منطقة عن الأخرى ، فتنوعت أساليب حياتهم ، وكثرت أشكال عاداتهم وتقاليدهم ، واختلف تبعاً لذلك انتماءاتهم ، سواء أكان ذلك على مستوى المجموعات الكبيرة ، كالأمم والشعوب ، أو فى حدود التجمعات الصغيرة ، كالقبائل والأسر ، أو فى إطار الذاتية ، كالأفراد والأشخاص .

ولولا هذه الاختلافات ، لأصبح من العسير تمييز شخص عن آخر ، أو تحديد ملامح سكان منطقة ما ، وفصلها عن غيرها من سكان المناطق الأخرى ، فتختلط الأمور وتتشابك ، إذ يصبح كلٌّ شبيه بالآخر ، ويصير الجميع نسخة مكررة ، لا ملامح للتمييز ، ولا معالم للتفريق . وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، أى ليعرف كلٌّ منكم الآخر ، عن طريق الملامح المميزة له ، والعادات والتقاليد التى تفصله عن الآخر ، على هيئة شعوب وقبائل ، أى ليعرف كلٌّ منكم أن هذا ينتمى إلى هذا الشعب أو ذاك ، وأن ذاك فرد من

أفراد هذه القبيلة أو تلك ، غير أن هذا الاختلاف أوحى إلى بعض المفكرين ، ودعاة المذاهب الفكرية بالتفاضل بين الأجناس ، لدرجة أنهم نسوا أن الناس خلقوا من أصل واحد ، فدعوا إلى نظرية تعدد أصول الأجناس البشرية .

فإذا كانت مبادئ الدين ، واتجاهاته التشريعية تحمل هذه المظاهر المحلية ، وتعامل الناس على أساس الفروق البيئية ، فتعالج مشاكل قبلية أو إقليمية فقط ، دون أن تتجاوزها إلى المشاكل العالمية ، التى لا تختص بإقليم دون آخر ، وتنحصر داخل حياة طائفة من الناس دون أخرى ، فهو دين محلى ، يختص بإقليم دون آخر ، أو يخاطب شعباً دون غيره من بقية الشعوب .

ولو استعرضنا الأديان المعروفة والمشهورة ، لتبين لنا من أول وهلة أنها أديان لا تحمل صفة العالمية ، ويظهر ذلك واضحاً لو حظنا — على سبيل المثال — الأسماء التى عرفت بها تلك الأديان ؛ فالنصرانية نسبة إلى قرية الناصرة ، وهى تسمية توحى بالانحصار فى الإقليمية ، واليهودية نسبة إلى يهوذا ، وهو تحديد بشخص معين ، وكذلك البوذية ، والمانوية، والزرادشتية، وغيرها من الأديان الأخرى .

أما الإسلام ، فهو عالمى فى تسميته ، ومبادئه ، وأحكامه ، وتشريعاته ؛ إذ هو لم يتخذ اسماً خاصاً بأحد ، ولم ينسب إلى فئة ، أو قبيلة خاصة ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩] ، ويقول : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٧] ، فهو دين التسليم لله ، وهى صفة لا تخص مجموعة دون أخرى من الناس ، بل هى عامة عند الجميع ، فيقول الله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٣]

وهكذا نرى من النظرة الأولى فى الأديان ، نظرة الاقتصار على مجرد التسمية ، أن تسمية الإسلام توحى بأن دين عام للمخلوقات كلها ، وللناس كافة .

فى الوحى

ذكرنا فى الفقرة السابقة أن التسمية توحى بأنه عام لكل المخلوقات ، ولكل الناس ، فإذا انتقلنا من التسمية إلى الوحى ، وهو أساس كل رسالة دينية ، لوجدنا أن الوحى الذى أنزل على محمد ﷺ قد اشتمل على خصائص كل ما أنزل على الرسل من قبله ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ [النساء: ١٦٣ – ١٦٤]

فالتعبير بالنبيين من بعد نوح ، يشير إلى أن القرآن الكريم جمع كل صفات الكتب السابقة ، التى أنزلت على الأنبياء جميعاً ، مما صيره تشريعاً عاماً لجميع الناس .

كذلك التفصيل ثم الإجمال فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ ﴾ يؤكد عموم رسالة الإسلام ، لأنها جمعت كل الخصائص ، التى اشتمل عليها كل وحى سبق على الإسلام . وبناءً عليه ، فهى لجميع البشر

، على اختلاف أقاليمهم ، وتنوع عاداتهم وتقاليدهم ، ولهذا جاء التعبير فى آيات القرآن الكريم بكلمة " **الإنسان** " التى يندرج تحتها كل أجناس البشرية ، يقول تعالى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق : ١ – ٥]

ولو أحصينا الآيات التى ورد فيها ذكر هذه الكلمة ، التى تطلق على البشرية جمعاء ، وهى " **الإنسان** " ، لوجدنا أنها ذكرت فى أكثر من ستين آية .

وأهم من هذا فى مفهوم عموم دعوته ﷺ أنه أكد مسئولية الفرد ، واستقلاله عن الارتباط بالخصائص التى تفصله عن الهيكل الكلى للمجموعة البشرية ، كالقبيلة أوالعشيرة . فليست المسئولية تابعة لخصائص عرقية أو إقليمية ، وإنما ترجع إلى الإنسان كفرد ، وهو يشترك فى هذا التخصيص مع كل إنسان فى أى إقليم ، وداخل أى مجموعة عرقية أوإقليمية ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، ويقول : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء : ١٣ – ١٤]

فالمسئولية تقع على عاتق الفرد وحده ، بعيداً عن أهله ، الذين تميز بهم عن غيره من أفراد الإنسانية ، وبعيداً عن إقليمه ، الذى فصله عن غيره ، داخل حدود معينة ، وعادات وتقاليد مختلفة عن غيرها من تقاليد الأقاليم وعاداتهم ، فهى قد حملته من داخل هذا الإطار الضيق إلى فضاء واسع ، وهو : " **العالمية** " ، حيث يشعر بأنه أخ لكل إنسان على وجه الأرض .

وطبيعة الأمور تقتضى بأنه مادام الاسم عاماً ، وهو : " **الإسلام** " ، والوحى يتضمن كل خصائص الوحى السابق ، والمسئولية فيه تقع على عاتق الإنسان ، باعتباره إنساناً ، لا

بكونه فرداً من قبيلة أو شعب ، فالإسلام بناءً على هذا هو : رسالة الله للناس كافة ، وللإنسان الذى استخلفه الله فى الأرض ، أينما كان ، وحيثما وجد ، فهو دعوة عالمية ، فى طبيعتها ومفهومها .

وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى فى كثير من آياته ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبا : ٢٨] ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف : ٩] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان : ١] ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [ص : ٨٧] ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يس : ٦٩ – ٧٠]

فكل هذه الآيات توضح مفهم العالمية فى الإسلام ، وهى دليل يؤكد ما بيناه من خصائص من تقع المسئولية على عاتقه ، وهى خصائص عامة يندرج تحتها كل إنسان على وجه الأرض .

فى الملاءمة

تموج أقطار الأرض بتيارات فكرية مختلفة المنابع والأصول ، ومتعددة المذاهب والاتجاهات ، ومتلونة الأشكال والألوان . وليس هذا قاصراً على المذاهب ذات الصبغة المادية ، بل هو أيضاً بين الأديان والمذاهب الروحية ، سواء منها ما كان بشرياً أرضياً فى أصله ومساره ، وما كان منها سماوياً فى بدايته ، ثم تحول إلى مسار بشرى ، عن طريق ما

علق به من أفكار الإنسان ، واتجاهاته الخاضعة لظروف مختلفة ، ومؤثرات متباعدة . فإذا بحثنا فى هذه المذاهب الفكرية ، والاتجاهات الدينية ، عن مدى القدرة فيها على استيعاب ظروف الإنسان فى كل مكان على وجه الأرض ، لتبين لنا أن ما كان منها موافقاً لطبيعة الإنسان ، فهو القادر على تهذيبه وتقويمه ، دون أن يكلفه بما لا يطيق ، ومن غير أن يلقنه أشياء بعيدة عن واقعه الإنسانى .

ولما كانت قدرة الإنسان غير متساوية ، وإمكاناته متفاوتة ، فينبغى أن يكون الدين الذى ينظم حياته مشتملاً على برنامج تربوى واضح ، يتسع لكل الظروف الإنسانية ، ويعالج كل المشاكل التى تعترض طريق الإنسان ، وفى الوقت نفسه يكون سهل التطبيق ، يسيراً على النفس الإنسانية ، مطابقاً لقدرات الإنسان العقلية والجسمية ، مراعياً الظروف الطبيعية المحيطة به . فإذا وجد هذا التكامل فى أى دين ، فهو عالمى ، لأنه يصلح للتطبيق مع كل إنسان ، وتحت كل الظروف النفسية ، وفى كل الأجواء المناخية .

ولا يجتمع هذا كله إلا فى الإسلام ؛ ففيه الوضوح واليسر والسهولة ، ؛ إذ أنه خلا من التعقيدات الفلسفية ، التى لا يفهمها إلا مجموعة قليلة جداً من العلماء ، أطلقوا على أنفسهم كلمة " **الخاصة** "، أى المتخصصون فى هذا الفن . وليس فيه من المبهمات والمعميات التى كثرت فى الأديان المنتشرة فى بعض مناطق الكرة الأرضية . وفى الوقت نفسه جاءت أحكامه وتشريعاته سهلة ميسرة ، بحيث يستطيع كل إنسان الالتزام بها ، دون مشقة أو عناء ، لأنه موافق لطبيعته ، ومنسجم مع متطلبات تكوينه الفسيولوجى والنفسى . فالإسلام مناسب لفطرة الإنسان ، وغير مناقض للمسلمات العقلية التى يعتنقها ، ولا يتصادم مع حريته الإنسانية ، التى تبنى كيانه ولا تدمره ، وتحافظ على وحدة مجتمعه ولا تمزقها .

فمن يقرأ القرآن الكريم يجده سهل المنال ، إذ يستطيع أن يجد فيه متعته النفسية والروحية ، ويفهم منه ما يحتاج إليه فى تنظيم حياته مع نفسه ومع الآخرين ، الذين يعيشون معه ، سواء أكانوا مشاركين له فى تجمعات بشرية معينة ، كا لأسرة والأمة ، أو متعاملين معه فى الحياة فى دائرة أوسع من هذا التقييد الأسرى ، أو الوطنى .

ففي مجال التيسير على المؤمنين نجد القرآن الكريم يشير إلى أن الله لم يرد من التكليف إلا تهذيب الإنسان ، دون أن يصيبه عنت أو حرج ، يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة : ٦]

ويقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج : ٧٧ – ٧٨]

ويقول عقب بيان فرض الصيام : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة : ١٨٥ – ٢٨٥]

ولم يفرض الحج إلا على المستطيع ، يقول تعالى : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران : ٩٧]

وهكذا فى كل ما أمر به المسلمين ونهاهم عنه ، فلم تكن أوامره فوق طاقتهم ، كما لم تكن نواهيه ضد طبيعتهم ، وتلك خاصية عمومية الإسلام لجميع الناس .

ولم يقتصر أمر التيسير على الفرائض المكتوبة المتعلقة بالعبادات فقط ، بل هو القاعدة فى كل ما يطلبه الإسلام من الإنسان ، يقول تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة : ٢٨٦]

كذلك وافقت تعاليمه فطرة الإنسان ، فأحكامه جاءت لصالحه ، من حيث إنه إنسان ، وهذا يعنى أن تكون هى شريعة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، يقوا تعالى فى بيان طبيعة الإسلام : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم : ٣٠]

فالمقصود بالفطرة فى هذه الآية ، هى طبيعة الإنسان الجامعة بين العالمين : المادى والروحى ، بما أودع فيها من غرائز ، أى أن الإسلام راعى هذه الفطرة فى بناء التكاليف عليها ، بحيث لا تكون مصطدمة معها ، أو مهملة لمقتضياتها المادية والروحية ، يقول الله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص : ٧٧]

فهو ليس ديناً مغرقاً فى الروحانية ، وليس مذهباً تسيطر عليه المادية ، بل هو فطرة تتمشى مع طبيعة الإنسان ، وبهذه الميزة كان ملائماً لجميع الأجناس البشرية ، فتقبله النفوس على اختلاف مستوياتها ، وتباين طرق حياتها ، لأنه يلبى مطالب الحياة بالقدر الذى يصلحها ، ويجعل النشاط فيها ذا أثر فعال فى جميع مجالات الإنتاج ، الذى يعود على الإنسان — بوصفه إنساناً — بالخير والسعادة ، والأمن والأمان .

ومن الجوانب التى أكسبت الإسلام صفة العالمية ، قيام أحكامه وتشريعاته على أسس عقلية ، يفهمها كل إنسان يتمتع بهذ الميزة التى ميز الله بها الإنسان على سائر الكائنات الحية . وأكبر دليل على ذلك أن أول آية نزلت من القرآن الكريم خاطبت العقل ، وحثته على التفكير فى نفسه ، وفى كيفية خلقه ، يقول تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق : ١ — ٥]

كما أنه حث على استعمال العقل فيما حول الإنسان فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، نذكر منها قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة : ٢١٩] وقوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام : ٥٠] وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ ﴿٨﴾ ﴾ [الروم : ٨] ، وقوله : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف : ١٧٦]

وغير ذلك من الآيات التى تثير فى الإنسان غريزة التفكير فيما يحيط به ، وهى عامة لدى جميع البشر . ويترتب على هذا ذم التقليد ، لأنه يشل تفكير الإنسان ، ويحط من قدره ، ويجعله عالة على غيره ، وذلك ضد طبيعة الإنسان . وقد نزلت آيات كثيرة تسفه أحلام الذين ساروا ضد هذه الطبيعة ، فألغوا عقولهم ، وساروا مع كبرائهم دون أن يستخدموا عقولهم التى وهبهم الله إياها ، لتقودهم إلى ما فيه الخير والسعادة . يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنبياء : ٥١ – ٥٤] ، ويقول : ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأحزاب : ٦٧]

وبناءً على حث الإسلام على استخدام العقل ، لا توجد حقيقة دينية فيه ، مخالفة للحقائق العقلية ، مما جعله صالحاً لكل إنسان على وجه الأرض ، لأنه يخاطب العقل الذى يشترك فيه جميع البشر . فليس فى القرآن لكريم حقائق تختص بجنس دون آخر ، وتناسب قوماً دون غيرهم من أقوام الأرض ، فالكل مشترك فى الأداة التى يتوجه إليها القرآن الكريم بأوامر الله ونواهيه ، ألا وهى : **العقل** .

وخلاصة القول : إن الإسلام دين عالمى ، بما فيه من يسر وسهولة ، تمكن كل الناس ، مهما اختلفت قدراتهم العقلية والجسمية ، من تأدية فرائضه وأحكامه ، وتهيئ الظروف لكل مجتمع بشرى لتطبيق شرائعه ، دون حرج أو مشقة فى هذا التطبيق ، لأنه يلائم الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، كما يخاطب العقل ، الذى يشترك الناس جميعاً فى استخدامه ، كأداة تهديهم سواء السبيل فى معترك الحياة .

فى موقفه من الحرية

تشغل قضية الحرية حيزاً كبيراً فى الفكر الإنسانى ، إذ مازالت تتصدر قائمة مبادئ كل مذهب فكرى ، على أساس أن حرية الإنسان يجب أن يكفلها كل نظام يريد لنفسه البقاء ، وتحافظ عليها كل " أيديولوجية " تنشد الانتشار بين الناس ، ويدعو إليها كل المفكرين من المشتغلين بقضايا الإنسان والمجتمع ؛ ذلك أن الحرية هى إحدى الدعائم الرئيسية ، التى يقوم عليها بناء الإنسان ، بوصفه عضواً صالحاً فى مجتمع قوى متماسك . فإن لم توجد فى المجتمع

البشرى ، ضعف أفراده ، وانحلت عقدة التماسك فيما بينهم ، فتناثروا فى مهب الريح ، لا يجمعهم هدف ، ولا يمسكهم مبدأ يرون فيه كيانهم ووجودهم .

ولهذا قدس الإسلام الحرية ، فدعا إلى كفالتها ، ولو أدى ذلك إلى عدم الاعتراف به ديناً ، يقول تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، ويقول : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف : ٢٩] ، ويقول : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس : ٩٩]

فيبين الله لرسوله ﷺ فى هذه الآيات أن الإيمان متروك لحرية الإنسان ، فلا ينبغى أن يمارس الإكراه لحمل الناس عليه ، لأنه لو شاء الله لأكرههم على الإيمان ، ولكنه تركهم بحريتهم ، ليكون الإيمان نابعاً من ذات الشخص نفسه ، حتى يثمر إيمانه ، لأن العمل لا يكون نافعاً إلا إذا فعله الإنسان وهو فى كامل حريته .

ولهذا نظر الإسلام إلى المجتمع نظرة شمولية ، فهو لا يفرق بين الناس على أساس معتقداتهم ، بحيث يسلبهم حريتهم بسبب هذه المعتقدات ، بل كفل لهم أسس العيش فى سلام واطمئنان داخل المجتمع الإسلامي ، وأعطاهم حريتهم كاملة فى ممارسة بناء المجتمع ، فلا زال قول عمر بن الخطاب ﷺ : " **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً** " ناقوساً يرن فى آذان كل المجتمعات البشرية ، معلناً أن المسلمين طبقوا قواعد الحرية ، كما أمرهم الإسلام ، واستنكروا كل ما من شأنه أن يسلبها من المجتمع ، لأنها أساس كيان الإنسانية ، ودعامة استقرار المجتمع على قواعد ثابتة ، لا تتزعزع أمام عواصف الدهر ، وتقلبات الأيام .

ومما يدل على سماحة الإسلام ، أن الرسول ﷺ عقد مع نصارى نجران عقداً يبيح لهم بقاءهم فى أماكنهم وإقامتهم فى ديارهم ، دون أن يكون معهم أحد من المسلمين ، وقد تضمن هذا العهد حمايتهم ، والحفاظ على حرياتهم الشخصية والدينية ، وإقامة العدل بينهم ، والانتصاف من الظالم . وقام الخلفاء من بعده على تنفيذه حتى عهد هارون الرشيد ، فأراد

أن ينقضه ، فمنعه محمد بن الحسن ، صاحب الإمام أبى حنيفة . وفى هذا دلالة واضحة على روح التسامح فى معاملة غير المسلمين ، إذ حافظ على حرياتهم فى العبادة ، وفى إقامة شعائرهم الدينية ، من غير تضييق عليهم ، ولا تعكير لصفو الجو الروحى لطقوسهم الدينية ، لأنه احترمها ، واتخذ من الإجراءات ما يحمى قداستها .

فتقديس الإسلام للحرية من أهم معالم العالمية ، لأنه فتح بذلك الباب على مصراعيه لكل الناس ، لينضووا تحت لوائه دون خوف أو وجل ، ويستظلوا بظله ، من غير أن يشعروا بالغربة ، أو يحسوا بأن مبادئه تصطدم مع طبيعتهم ، فكل إنسان يجد مبتغاه ، مادام ملتزماً بالقواعد الاجتماعية ، ومنفذاً للقوانين التى تحافظ على الفرد والمجتمع ، لا فرق فى ذلك بين من آمن به ، ومن ارتضى العيش فى ظل دولته ، إذ لا يضار أحد فى نفسه أو أهله ، أو ما يملك . ولا يحجر على أحد فى إبداء رأيه ، أو فى التعبير عن فكره ، مادام فى إطار المصلحة العامة ، أو فى المجال الخاص الذى لا يؤثر على الدولة ، أو الذى لا يلحق ضرراً واضحاً بالمواطنين .

فكان هذا من أهم معالم عالميته ، إذ أظل بظله كل أصحاب الكتب السماوية السابقة ، فضمن لهم حريتهم فى العقيدة والعبادة ، وفى كل ما يتعلق بشئون الحياة . وقد فهم المسلمون هذه الروح الإسلامية ، فعاملوا غير المسلمين معاملة طيبة فى جميع العصور، من بدء ظهور الإسلام حتى اليوم . وكتب التاريخ مليئة بالأحداث التى تظهر هذا الجانب من معاملة المسلمين لغيرهم ممن بقوا على عقائدهم القديمة ، فقد روى أن عمر بن الخطاب ﷺ مر بباب قوم وعليه سائل يسأل ، وكان شيخاً ضرير البصر ، فضرب عمر عضده ، وقال له : من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى . قال : ما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله وأعطاه مما وجده ، ثم أرسل به إلى خازن بيت المال ، وقال له : انظر هذا وأضرابه ، فو الله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ، ثم نخذله عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين . والفقراء هم فقراء المسلمين ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، ثم وضع عنه الجزية .

وقد سار أمراء المسلمين على هذا الدرب فى معاملة أرباب الأديان الأخرى ، الذين كانوا يعيشون فى الدولة الإسلامية ، أحاطوهم بالرعاية والعناية ، وحافظوا على حقوقهم وأموالهم ، وكرموهم واستعانوا بهم فى مجالات الدولة المختلفة ، حتى وصل الأكفاء منهم إلى مرتبة الوزارة ، وتلك ظاهرة لم تحدث مع غيره من الأديان ، وما ذاك إلا لأنه دين عالمى ، فتح صدره لكل الناس ، على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ، فأعطى الحرية للجميع فى التفكير ، وسمح لهم بممارسة طقوس عبادتهم فى ظل دولته ، وتركهم وما يعتقدون ، ماداموا ملتزمين بالخط العام الذى رسمه الإسلام للدولة .

وأكبر دليل على سماحة الإسلام مع أهل الأديان الأخرى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران : ٦٤]

فلم يجبرهم على اعتناق مبادئه بالقوة ، كما فعل أرباب الأديان الأخرى فى حمل مخالفيهم على الإيمان بعقائدهم ، بل تركهم ، واكتفى بأن يدركوا أن المسلمين قد أسلموا الوجه لله لا لغيره ، أى أنهم أطاعوه فنفذوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، لعل فى هذا ما يوقظ فى أنفسهم جانب الخير ، فيتبينوا أن المسلمين على صواب فى دعوتهم لهذا الدين ، وذلك أقصى درجات الحرية فى أن يختار الإنسان بنفسه ما يريد ، وما يراه صواباً بعد أن تظهر أمامه الحقيقة واضحة .

وأهم من هذا كله فى مفهوم عالمية الإسلام ، تقبله للثقافات الأخرى الغريبة عنه ، مما يدل على سعة أفقه ، ونظرته العالمية الواسعة إلى الأديان والأجناس الأخرى ، فأقام حضارة كبرى ، ساهم فيها أهل هذه الأجناس والأديان فى كل ناحية من نواحى الحياة والفكر ، والفلسفة والأدب ، والفن ، والطب ، واللغة ، والتصوف . وكانت تلك الحضارة تأليفاً وتوحيداً لكل الحضارات قبلها : فى الصين ، والهند ، وفارس ، والروم ، واليونان .

بنى المسلمون على كل هذه الأسس بناءً حضارياً ضخماً ، اشترك فيه العلماء من جميع الأجناس والأديان ، فكانت بحق حضارة لجميع أهل الأرض ، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم . ثم انتقل هذا التراث الحضارى إلى الأجيال اللاحقة ، فكان مصدراً للحضارة الحديثة . وقد عبر أحد العلماء عن دور المسلمين فى بناء الحضارة الإنسانية بقوله : " إن المسلمين لم يحرصوا فقط عبى أن يكونوا ورثة الأنبياء ، بل ورثة الفلاسفة كذلك .

فالإسلام دين عالمى ، لأنه لم يغرس فى نفوس المسلمين حقداً ضد أى طائفة أخرى من البشر تعتنق ديناً آخر ، ولم يحرم عليهم التزود بأى نوع من أنواع الثقافات الإنسانية ، ولم يفرض عليهم شيئاً يعزلهم عن غيرهم من أجناس البشرية ، ولم يأمرهم بإجبار أحد على اعتناق الإسلام . فكان بذلك ساحة ضمت جميع الناس ، وبوتقة صهرت جميع الثقافات ، ووادياً أمن فيه الناس على أنفسهم وعقائدهم وأفكارهم ، واطمأنوا على سلامة أموالهم وممتلكاتهم ، فنظروا إليه غير خائفين ، وفكروا فى مبادئه غير وجلين ، ودرسوا أحكامه فى جو من الحرية والديمقراطية ، فجاء اعتناق من اتخذه ديناً عن رغبة واقتناع ، وعاش فى ظل دولته من بقى على دينه آمناً مطمئناً ؛ يسعى إلى رزقه ، ويشارك فى مجالات الدولة المختلفة ، تحت راية الإسلام التى ترفرف معلنة أنها مظلة الإنسان من حيث هو إنسان ، لأنه عبد الله ، الذى أنزل هذا الدين على محمد ﷺ .

فى الثوابت والمتغيرات

خلق الله الكون ، وجعل الحركة مبعث الحياة فيه ، فلو توقفت هذه الحركة لانعدمت الحياة كلية . ومن لوازمها التغيير الدائم ؛ إذ لا يستمر شيء على وجه الأرض على حالة واحدة فى لحظتين ، بل هو فى تفاعل مستمر ، وتغيير مطرد .. ولهذا نرى أن المجتمعات التى لا تدرك هذا القانون الإلهى يصيبها الشلل ، عندما تبطئ حركتها ، أو تتجاهل حتمية الحركة ، التى هى أساس التطور والتقدم ، ومنبع الرقى ، وبناء الحضارات .

ولما كان هذا المبدأ هو أساس التقدم المطرد ، فإن من المحتم ألا يبقى مظهر من مظاهر الحياة ثابتاً ، وإلا كان عائقاً يعوق سير الحياة فى مجراها الطبيعى ، لذا كان لابد للإنسان أن

يغير فى أسلوب حياته ، كى يتلاءم مع سنة التطور ، ويعدل فى قوانينه لتنسجم مع صور الحياة المتجددة ، وتلبى احتياجات المجتمع التى تنشأ عن التفاعلات المستمرة فى الظواهر الاجتماعية . فإن تقاعس أبناء الأمة عن القيام بهذا العمل ، أو اعتقدوا أن ما خلفه الأجداد لهم أمر لا ينبغى تغييره ، لأنه من الأمور المقدسة ، التى لا يجوز محوها ، أو الاستغناء عنها ، أو تعديلها ، فقد حكموا على أنفسهم بالجمود ، وضربوا بينهم وبين التقدم سياجاً يحول بينهم وبين مشاركتهم فى بناء الحضارة العالمية .

وإن كان جمودهم على القديم بسبب عجزهم عن فهم طبيعة الحياة ، وتخاذلهم عن الإسهام فى حركة التقدم الإنسانى ، وقصورهم الفكرى عن التأثير فى مجالات الحياة الفكرية ، فتلك آفة تصاب بها المجتمعات الإنسانية من حين لآخر ، ومرض يفتك بالحيوية الخلاقة ، التى أودعها الله فى الإنسان ، ليقوم بمهمة استخلافه فى الأرض .

ومن رحمة الله بالمجتمعات أن هيأ لها ظروفاً تساعدها على التغلب على مثل هذه الآفات ، وتعينها على الشفاء من هذا المرض ، لتأخذ مكانها الطبيعى الذى خلقها الله لتؤدى دورها فيه .

وعلى الرغم من قانون التغيير الذى هو طابع الحياة ، فإن هناك ظواهر ثابتة تتحرك بهيئتها وطابعها داخل عجلة الزمن التى لا تتوقف عن الدوران ، فهى بمثابة الأعمدة التى تحتل المركز الذى يجمع بأطراف المتغيرات المستمرة فى الظهور والعدم ، ولولا ذلك لانهار كل ما على الأرض أثناء هذه التحولات المستمرة .

ويبدو ذلك واضحاً فى النظم والقوانين ، التى ترسم للمجتمعات طريقها فى الحياة ، وتحافظ على كيان الأمة من أن يصيبه الانهيار والدمار ، وتحفظ طابع الحياة التى يتمثل فى الاستقرار والأمن والسعادة لبنى البشر ؛ ذلك أنه لو أصيبت هذه القوانين بالجمود ، لجمدت الحياة وتخلف ركب الحضارة الإنسانية ، ولو خلا كلية من عناصر ثابتة ، ومبادئ مستقرة ، لأصيب المجتمع بحمى التغيير السريع ، والتبديل المستمر ، الذى لا يهدأ ، ولا يستقر ، فترتبك الحياة، وتضطرب، أو تختلط الأمور وتتشابك ، فتقع العقول فى حيرة ، وتصاب الأمة بالشلل ، إذ تعجز عن تحديد مفاهيم ما يدور حولها ، فما كان بالأمس صالحاً أصبح

اليوم طالحاً ، وما تمسكت به فى الماضى القريب ، لاعتقادها أنه مناسب لحياتها ، تستنكره اليوم ، وتنظر إليه بعين الاستهزاء والسخرية .

ولهذا كان لابد من أن تشتمل النظم والقوانين على مبادئ كلية ، ثابتة لا تتغير ، حتى يكون للحياة استقرارها ، ولسلوك الناس فى حياتهم أسس لا تتغير ، ومبادئ كلية لا تتبدل . ولا يمكن للعقل البشرى أن يضع مثل هذه النظم والقوانين ، لأن إمكاناته الذهنية مرتبطة بعصره ، ومحددة بإقليمه ، لذا كان لابد لتحقيق هذين العنصرين — وهما عنصرا : الثبات فى المبادئ الكلية ، وإمكانية التغيير فى التفاصيل الفرعية لمواجهة التغيير المستمر — من أن يكون قدرة واضع هذا القانون ، الذى يشتمل على هذين العنصرين غير محدودة الزمان والمكان ، ليستطيع وضعه كاملاً دون أن يصيبه خلل أو ضعف ، أو يطرأ عليه فى وقت ما عدم ملاءمة الظروف المتغيرة . ولا يقدر على ذلك إلا الله ﷻ .

فقد أنزل الله التشريع الإسلامى على محمد ﷺ متطابقاً مع نظام الكون ، ومنسجماً مع كل ما يطرأ من تغييرات ، أو يظهر على سطح الحياة من ظروف متجددة ، ذلك أنه تضمن قواعد كلية تصلح لكل الأزمنة والعصور ، وتتمشى مع ما ينبغى أن تكون عليه الحياة من الاستقرار ، أو تتفق مع الظواهر التى يشترك فيها جميع الأجناس البشرية .

ولا يستطيع ذلك إلا الله ، فقد أنزل التشريع الإسلامى مشتملاً على قواعد كلية ، تصلح لكل الأزمنة والعصور ، ومع ذلك فقد تركت التفاصيل والتفريعات لعقل الإنسان ، يستخلصها حسب عصره وبيئته ، ويستنتجها طبقاً لمتطلبات ظروفه المحيطة به ، بحيث يلبى احتياجات العصر ، وفى الوقت نفسه لا تخرج عن الخط الرئيسى الذى رسمه الإسلام كمبدأ عام يلتزم به الجميع ، أو كدستور يتخذه الناس قاعدة تشريعية أصلية ، ينبثق عنها كل ما يقررونه من قوانين ، وما يرسمونه لأنفسهم من لوائح ونظم .

فالقضايا الكلية فى الإسلام ، هى قواعد التشريع الأساسية ، التى تصلح لكل شعب ، وتلبى احتياجات كل المجموعات البشرية ، على اختلاف ألوانها وأجناسها ، وتتناسب مع كل عصر وبيئة ، إذ يتخذها الجميع أساساً ، يستنتج منه أحكاماً لكل القضايا ، وعلاجاً لكل المشاكل التى تواجه الإنسان والمجتمعات . فكانت هذه المبادئ الرئيسية فى التشريع

أساساً للاجتهاد فى مجال الأحكام الشرعية ، الذى بمقتضاه تكونت المذاهب الفقهية ، فزخرت بالأحكام والتفريعات التى كانت منها فروض مقدرة الحدوث فى الأزمان المستقبلة .

فكان هذا العمل فى مجال التشريع دليلاً على مرونة الفقه الإسلامى وصلاحيته لمواجهة الأحداث ، التى تظهر نتيجة لديناميكية الحركة فى مجالات الحياة المختلفة ، وعنصراً جوهرياً فى مفهوم عالمية الإسلام .

فقد جاء فى القرآن الكريم آيات كثيرة رسمت قضايا كلية فى مجالات الحياة المتعددة ، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى : ٣٨]

فهذه قضية توضح أن الإسلام يحث على ألا يكون الأمر فى المجتمع ديكتاتورياً ، بل ينبغى أن يقوم على أساس الشورى ، ولم يحدد لهذه الشورى صيغة معينة ، بل تركها لظروف كل عصر ، وطبيعة كل بيئة . كذلك لم يحدد فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف : ٣٢] أنواع الزينة ، أو أشكالها وهيئاتها ، بل ترك ذلك لمقتضيات الزمان والمكان ، بشرط ألا يكون فى ذلك اقتراف لمعصية ، أو تناول خبيث ، كما فى قوله تعلى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، فهذه وأمثالها أمور كلية وضعت الأساس الذى يحفظ كيان المجتمع ، وحددت الإطار الذى يتحرك بداخله الفقهاء والمشرعون لمواجهة متطلبات العصر والبيئة .

وخلاصة القول : إن الإسلام جاء موافقاً لقوانين الحياة ، فرسم قواعد ثابتة ، وترك التفصيلات والتفريعات للفقهاء ، لتكون مجالاً للاجتهاد والاستنباط ، سعياً وراء الصيغ القانونية التى تلائم بيئاتهم وعصورهم . وعلى هذا الأساس وجهت الدعوة إلى كل من على وجه الأرض ليدين بالإسلام ، لأنه النظام الوحيد الذى يوافق طبيعة الحياة ، وحركتها

المستمرة ، ويتلاءم مع ما تتطلبه من قواعد ثابتة ، تقوم عليها هذه المتغيرات ، كى لا تنهار أو تتبدد معالمها ، وسط هذا السيل الجارف من الأحداث المتجددة .

فدعا رسول الله ﷺ الناس كافة إلى الدخول فى الإسلام قائلاً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف ١٥٨]

كما بعث بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، فقد ورد أن رسول الله ﷺ لما رجع إلى المدينة من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست من الهجرة ، أرسل رسلاً إلى الملوك ، فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع ، فبعث كتاباً إلى النجاشى ملك الحبشة ، وإلى هرقل عظيم الروم ، وإلى المقوقس عظيم القبط ، وإلى كسرى عظيم فارس .

وأرسل كذلك إلى غيرهم على حدود الجزيرة العربية ، فأرسل إلى أهل نجران وسائر من ينتحل النصرانية فى أنحاء الجزيرة العربية ، يدعوهم إلى الإسلام ، وأنه رسول الله إلى الناس كافة ، وبهذا وجه الأمة من بعده إلى فكرة الدعوة إلى الإسلام ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .

وسار المسلمون من بعده على هذا المنهج ، فحملوا الإسلام إلى الناس قاطبة فى جميع أركان المعمورة ، وما زالوا ينادون الناس فى كل مكان ، مبينين لهم أن الإسلام لا يختص بجيل دون آخر ، وليس لطائفة دون غيرها من الطوائف ، ولم يكن دين شعب بعينه ، بل هو دين الناس جميعاً .

ولهذا جاء مطابقاً للقانون الأساسى فى حياتهم ، وملائماً لأسلوب معيشتهم فى كل زمان ومكان .